

رحلة إلى الفرديس

فازت هذه القصة بجائزة تشجيعية في مسابقة
القصة القصيرة «لرابطة الأدب الإسلامي العالمية»

لمياء حسن حجازي

كنتُ على أرض المطار عندما سرحْتُ بِذِهْنِي لحوادث الأسابيع الأخيرة وما صاحبها من نقاشٍ وجدالٍ ومشكلات بين أبي وأمي،
دُموعي وتوسلاتي ... وساطة عمتي وزوجها. معارضة نصف العائلة!

ومعي شهادة عالية! ماذا جرى لك يا ماما؟

- ثلاث أو أربع سنوات؟ يا إلهي ...

ماما، لن أكون لوحدي، سالم معي

- لن تسمعي صوت الأذان ... فكيف تُصَلِّين هناك؟ وهل
ستصومين رمضان؟ إنهم لا يعرفون رمضان يا ابنتي ... لا يسمعون
الأذان ولا يعبؤون بالصلاة.

ماما، نحن في القرن العشرين ... وأنا ذاهبة لأتعلّم، فلم تعد هذه
مشاكل القرن العشرين. أنتِ تعيشين في عالم قديم مُتَحَجِّر.
تَمتت:

- بل هذه مشاكل أساسية في هذا القرن بالذات، ولكنني عُدت
للبياء ثانية، فاقتربت مِنِّي قليلاً، تطلعت في عينيّ طويلاً ... شددت
على كل حرف نطقت به قائلة: -

- ليلي ... قلبي يُحْدِثُني بسفرك، ستُساوِرِين، أعلم ذلك وبكت.

وهنا أمسكت بذراعي: -

- هل تعددني بأن تتمسكي بدينك، أخلاقك، صومك
وصلاتك وأنتِ هناك في بلاد الإنكليز؟

فإذا قطعت هذا العهد على نفسك فاذهي يا ابنتي والله معك.
وكان العالم كله قد بدأ الرقص معي في تلك اللحظات، وأجبتها بلا
مبالاة:

- طبعاً طبعاً، أعدك يا أُمِّي!

كانت فكرة السفر هي الشيء الوحيد الذي استحوذ على عقلي
وكياني طوال الوقت.

وقفتُ في بهو المطار أتذكر في لحظات، هذه الأحداث، وأهنيء
نفسي على هذا الانتصار العظيم!

لا أفهم، لماذا يبكي الجميع؟

كنت سعيدة. ولم أعبأ بعبرات أُمِّي التي كادت تُخَنِّقها، ولا بدموع
أبي الذي حاول جاهداً أن يحبسها، ولا حتى بقبلات إخوتي وأخواتي،

دَوَامَة .. تلفُ بي ... دَوَامَة تَدورُ وتدورُ ولكني أخيراً انتصرت.
وها أنا ذا على أرض المطار أودعهم وأنا في طريقي إلى الفرديس المنتظر
لتحقيق حُلُم طالما راودني لسنين طويلة منذ سفر أخي سالم لإكمال
دراسته في أرض الإنكليز.

صوتُ أبي يُردِّدُ في حِيرة.

- البعثة فرصة لا تعوّض يا أمّ سالم ... والله أنا حائرا! ولكن أُمِّي
تحاول أن تغير رأيه جاهدة:

- البنتُ صغيرة، لا يمكن أن نرسلها إلى بلاد الغرب ... لا أمّ

بقربها ولا أب ... لا يمكن!

- سالم، أخوها، هناك!

- تتغير أفكارها، فهي مندفعة وصغيرة!

- لا تقلقي يا أمّ سالم، ما دامت جذورها أصيلة وإيمانها قوي،
فلن تبدل، هنا أو في آخر العالم ...

أما أنا ... فقد تكوّرت كجذ مذعور عند آخر السلم، أستمع في
خوف، وترقب. قلبي يقفز من ضلوعي مع كلّ تسويع تُبديه أُمِّي،
يتبدّل رأي أبي! وأقول في نفسي: يجب أن أسافر ولن يقف أحدٌ في
طريقي.

تذكرت مواجعتي القاسية مع أُمِّي في اليوم التالي وأنا أصرخُ في
وجهها: -

- إسمعيني جيداً يا أُمِّي، أنتِ تقفين حجراً عثرة في طريق
مُستقبلي وسعادي وكل أحلامي ... ستُحطمين كلّ شيء!

- يا حبيبتي، لن تجدي هناك صَدرًا يحنو عليك، ولا دِفْناً في
شَتائهم البارد ... إنهم لا يعرفون الإيمان ... لا يعرفون سوى المادة.

- لديّ ما يكفيني لآخر العمر! أريد السفر أرجوك أُمِّي!

- ما زلتِ صغيرة يا ليلي ...

لكن البعثة لن تنتظرنني حتى أكبر، إنها فرصة العمر ... فرصة
العمر ولا تعوض. ثم إنها ثلاث أو أربع سنوات فقط ... وأعود بعدها

قصة قصيرة

وراحت الطائرة تهبط بسرعة وبشكل عمودي... سرعة لا يمكن تخيلها ووسط الخوف والعويل لا أذكر إلا أن يدي امتدتا بحركة عفوية إلى شيء صغير بين جوانحي، وضعت أمني قبل ساعات، واحتضنت المصحف بقوة، وبدأت أتمم بآيات قرآنية. كان لساني يرددها بطلاقة عجيبة، وبدون أخطاء... لماذا رسبت يا ترى في امتحان الدين ولم أتذكر شيئاً على الإطلاق، بينما أرددها بكل يسر في امتحان الحياة؟

كنت في عالم آخر، لا يمت إلى عالم الطائرة بشيء! لقد غلف الموت أجواء الطائرة. وصار يشدها ومن عليها إلى الهاوية. وهي تهبط كالصاروخ... كنت أسمع الصراخ... وأرى الأشياء تنهار وتسقط من كل جزء في الطائرة... بعض الركاب تخرجوا على أرض الطائرة وبعضهم سالت دماؤهم! أما أنا فقد كنت كلولة في صدفه، نفحات مما قرأته أمني لي من آيات في الصباح الباكر غلفتني بسد منيع، حتى الموت لم أعد أخشاه. رأيت أشباحاً تلوّح ثم تختفي... نضيء لأقل من ربع الثانية... وتلاشي كالحلم! وجه خالتي التي توفيت قبل أعوام بمرض السرطان وهي ما تزال في العشرين ربيعاً، كنت أحبها كثيراً، جاء وجهها مبتسماً ثم اختفى. وجوه أناس أحببتهم وتركونا للعالم الآخر. كل هذه الصور السريعة تراءت أمام ناظري، حتى لم أعد أدري إن كانت حقيقة أم خيالاً؟ وجه جذي، وقد توفى وأنا طفلة صغيرة... لا أكاد أذكره، رأيته بوضوح! كان يتسم في حناي وكأنه يقول لي: «لا تخافي... ليس الآن» أكانت صوراً حقيقية أم خيالاً؟ لا

أدري... الحقيقة الوحيدة هي ما كنت أمسك به طوال المحنة. مصحف صغير في كيس صغير. ذاك كان الوجود كله - احتضنته بقوة، مُستمدة منه شجاعة لا حدود لها - وسلّمت أمري ومصيري للخالق، شعرت ولأول مرة بالأمان. وأنا في خضم الكارثة، شعرت بأمان لم أشعر به حتى وأنا في حضن أمني!

وكالعاصفة التي تتوقف فجأة، ارتطمت الطائرة في هبوط اضطراري وغاب كل من عليها عن الوعي... إلا أنا... كنت الوحيدة بكامل وعيي.

كان وعيي ولأول مرة، على أفضل ما يكون - كنت أرى العالم من خلال منظار جديد... لحظة وصولي أرض الفردوس.

كنت أتمم بصوت خافت.

﴿لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السماوات وما في الأرض﴾. صدق الله العظيم

وأنفخ بين الحين والآخر لأطرد إبليس ووساوسه عن الصدور حتى لا أضل الطريق.

وهم يرددون:

- اكتب لي يا ليلي، لا تنسي، اكتب لي حالما تصلين!

الجميع يحتضني، ويودعني...

في غمرة الوداع تسللت راحتا أمني الدافئتان وقد بللتها قطرات من الدمع لتحتضن وجهي بحنان وناولتني مصحفاً من الحجم الصغير وضعته داخل كيس من الجلد الأسود. همست في أذني: -

- ليحرسك الله، احتفظي به دائماً واذكري وعدك لي... ليلي حبيبي! وصارت تقرأ في رَجْهي «آية الكرسي»، وتنفخ بين الفينة والفينة، لتبعد إبليس، وهي عادة ما كانت لتتركها كلما سافر أحد أفراد العائلة. وراحت تتمم بدعوات لم أميزها. ولكن صوت حرف السين كان يأتي واضحاً «بسم الله... بسم الله... السلام على سيدنا محمد... سيد المرسلين...»!

شعرت برعدة تسري في أوصالي، غير إنني استرجعت رباطة جأشي، وقبّلت الجميع وخرجت أهول إلى حيث تقف الطائرة..

لم أصدق نفسي إلا حين جلست، وأخذت مقعدي. تنفست الصعداء... كدت أنسى أن ألوح لهم من النافذة لولا انتباهي إلى أن الجميع يفعل ذلك فلوحت لهم مودعة.

عالم جديد في انتظاري... مفاجآت... رحلات... كدت أصفق من شدة السعادة. بدأت أعرف على الوجوه من حولي، وأتحدث وأثرثر... حتى تعبت! كان السفر يستغرق نحواً من تسع ساعات

في ذلك الوقت. كنت أفكر بالفردوس الذي في انتظاري: رحلات أتعرف فيها على بلدان أوروبا الجميلة... قد أسافر إلى أمريكا... سأحصل على درجة الدكتوراة...

سأركب القطار، الدراجة، الباخرة... ولن أشعر بالملل لأنها الفردوس! نسيْتُ في لحظات هموم الوداع. وغرقت في غفوة عميقة - لقد مر الآن أكثر من خمسة وعشرين عاماً وما زالت أحداث تلك اللحظات أقرب إلى ذاكرتي من حوادث الأمس -

شعرت بثقل فوق صدري. وبدأ العرق الغزير يتصبب من جسمي. فتحت عيني مرعوبة! الجميع في هلع وهرج ومرج! بدأ الصغار بالصراخ والكبار بالعويل والولولة! صوت المضيفه تصرخ: - اربطوا الأحزمة...

ثم تعود ثانية فتقول في خوف واضح:

- حاولوا إخراج الكمامات.

ولكن صوتها ضاع بين صراخ الركاب وأزيز المحركات وقد اشتعلت النيران في إحداها. كنت أدور بعيني أحاول أن أتابع ما يجري من حولي.